الجهود البلاغية للخطيب القزويني في كتابه الإيضاح

اعـــــداد
مرزوق حمود مرزوق الشمري أحمد مطلق نايف الشمري

تم استلام البحث : ١٩ / ٢ / ٢٠١٨ تم قبوله للنشر : ٦/ ٤ / ٢٠١٨

الخطيب القزويني[١]**:**

هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن الحسن بن علي بن إبراهيم بن علي بن أحمد بن دلف بن أبي دلف العجلى القزويني.

ولد سنة ٦٦٦ بالموصل، وسكن الروم مع والده وأخيه، واشتغل وتفقه حتى ولي قضاء ناحية بالروم، وله دون العشرين، ثم قدم هو وأخوه أيام التتر إلى دمشق.

"لقب بالخطيب لأنه ولي خطابة دمشق في الجامع الأموي، وشهر بها، فطلبه السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى القاهرة، فخطب بين يديه في جامع القلعة، وكان زلق اللسان، ناصع البيان، ونسب إلى قزوين، لأن بعض أجداده سكنها"[٢].

توفي سنة ٧٣٩هـ.

وقد ساعدت عوامل عديدة في تكوين شخصية القزويني العلمية لعل من أهمها:

١/ انتماء القزويني إلى المدرسة الكلامية أو العلمية وهو أحد أعمدتها، ولعل اشتغال أصحابها بتجويد التعاريف، وذكر الأقسام، وتحكيم العقل في حصرها وتحريرها راجع إلى البيئة التي نشأت فيها هذه المدرسة وهي المناطق الشرقية من الدول الإسلامية حيث كان يقطنها الفرس والترك الذين يميلون إلى البحوث العقلية، ويبدو هذا واضحاً عند القزويني من استخدامه مصطلحات المنطق والفلسفة مثل العقل والوهم في مبحث الفصل والوصل، وضرورة استخدام الفاعل واعتباره في مبحث المجاز العقلي، وغير ذلك[٣].

---

(١) انظر ترجمة القزويني في: البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٥/١٤، بغية الوعاة للسيوطي، ١٥٦/١، ١٥٧، الأعلام للزركلي، ١٩٢/٦، وكشف الظنون لحاجي خليفة، ١٥٠/٦، وانظر مقدمة كتاب الإيضاح، ص ٨.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص ٦١٤.

(٣) انظر: مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء د. حامد الربيعي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ص ٤٤١.

وكان من أهم العوامل التي كونت شخصية القزويني العلمية كما يذكر المؤرخون، أنه كان على جانب عظيم من الثقافة، فهو فقيه، أصولي، محدث، وكان يرغب الناس بالاشتغال بأصول الفقه، وكان خطيباً وقاضياً، الأمر الذي يتطلب شخصية واعية، ملمة بثقافة العصر، مجيدة لأحكام الشريعة الإسلامية، وقد أحاط القزويني بهذه الأصول[٤].

وقد يكون لأساتذته أثر كبير في شخصيته العلمية، فقد أخذ العلم في مستهل حياته عن أبيه، وتفقه على يديه، كما "سمع وهو في دمشق من العز الفاروقي (ت ٦٩٤هـ) وعن الأيكي (ت ٦٩٧هـ) وحدث وأفتى بالأحاديث التي خرجها له البرزالي، وأخذ المنطق عن الشيخ شمس الدين الإيجي، وشهد له الجميع بالبراعة، والفطنة، وسرعة الاستيعاب، وحسن الاستنباط، ومن أساتذته أيضاً الأستاذ المراغي الصوفي عمر أبو القاسم، الذي قدم دمشق عام ٧٢٩هـ"[٥].

تلك هي أهم العوامل التي أثرت على حياة القزويني فوجهته الوجهة العلمية في البحث.

تقسيم القزويني لكتابه الإيضاح في علوم البلاغة:

قسم القزويني كتابة ثلاثة أقسام الأول:

أفراده لعلم المعاني، والثاني لعلم البيان، والثالث لعلم البديع، وقد بدأ كتابه بتصدير تحدث فيه عن: الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة؛ وانحصار علم البلاغة في المعاني والبيان.

في علم المعاني تحدث القزويني عن:

- أحوال الإسناد الخبري.
- الحقيقة العقلية والمجاز العقلي.
- أحوال المسند إليه.
- أحوال المسند.
- القصر.
- الإنشاء.

(٤) انظر المختصر في تاريخ البلاغة، د. عبد القادر حسين، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ص ٢٤٦.

(٥) المختصر في تاريخ البلاغة، ص ٢٤٦.

- الوصل والفصل.
- المساواة.
- الإيجاز.
- الإطناب.

وفي علم البيان تحدث القزويني عن:

- القول في التشبيه.
- القول في الحقيقة والمجاز.
- المجاز المرسل.
- الاستعارة.
- المجاز المركب.
- آراء السكاكي في الحقيقة والمجاز.
- شروط حسن الاستعارة.
- القول في الكناية.

في علم البديع تحدث القزويني عن:

- المحسنات المعنوية وذكر منها: الطباق والمقابلة، ومراعاة النظير، والمشاكلة، والمبالغة، والتورية.
- المحسنات اللفظية، وذكر منها: الجناس، السجع، ولزوم ما لا يلزم.

ويمكن تفصيل القول عن القسم الثالث عند القزويني وهو البديع على الطباق نموذجاً على النحو التالي:

الطباق:

عرفه الخطيب القزويني بأنه "الجمع بين المتضادين، أي معنين متقابلين في الجملة"[٦].

ولعل القزويني بهذا التعريف قد جاوز التعريف المعجمي لكلمة الطباق التي تعني: "الموافقة، ومشي المقيد، ووضع الفرس رجليه موضع يديه"[٧].

(٦) الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزويني، ص ٢٥٥.

وذكر عبد القاهر الجرجاني شواهد كثيرة على الطباق، ومنها قول الفرزدق:

والشيب ينهض في الشباب كأنه * ليلٌ يصيح بجانبيه نهارُ[٨]

وقد ذكرها قدامة بن جعفر في معرض حديثه عن بعض الخصائص الأسلوبية التي تعلي من شأن الشعر.

يقول: "والذي يسمى به الشعر فائقاً، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسناً صحة المقابلة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، واعتدال الوزن، وإصابة التشبيه، وجودة التفصيل، وقلة التكلف، والمشاكلة في المطابقة، وأضداد ذلك كله معيبة تمجها الآذان، وتخرج عن وصف البيان"[٩].

وقول الخطيب القزويني "هي الجمع بين متضادين" هي عبارة السكاكي كما ذكر صاحب "المطول"[١٠] وفسرها الخطيب القزويني بقوله: "أي معنيين متقابلين في الجملة" ليتجاوز بذلك المعنى اللغوي الذي ربما قد يتوارد إلى الذهن، وليكون الجامع بين المتطابقين أعم من التضاد، وهذه هي الغاية التي وصل إليها القزويني بتعريفه للطباق، وتصدقها شواهده، وهي التي فهمها من تعريف السكاكي الموجز، ففسرها، وزاد عليها.

وألحق القزويني بالطباق ما سماه بـ"إيهام التضاد" ومثل عليه "بقول دعبل[١١]:

لا تعجبي يا سلم من رجلٍ * ضحك المشيب برأسه فبكى[١٢]"

فالضحك هنا من جهة المعنى ليس بضد البكاء، لأنه كناية عن كثرة الشيب، ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة.

كما مثل القزويني أيضاً لإيهام التضاد "بقول أبي تمام[١٣]

---

(٧) القاموس المحيط، للفيروزبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص ١١٦، مادة: طبق.

(٨) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة دار المدني بالقاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ص ٩٤.

(٩) علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص ٨٤، نقلاً عن نقد الشعر لقدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ص ١٣٣.

(١٠) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، للعلامة سعد الدين مسعود التفتازاني، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص ٦٤١.

(١١) الإيضاح، ص ٢٥٨.

(١٢) البيت لدعبل الخزاعي في كتاب الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ٩٨/١.

ما إن ترى الأحساب بيضاً وضحاً * إلا بحيث ترى المنايا سودا

فإنه قابل بين لفظين مجازيين، ظاهرهما التضاد، وهما بياض الأحساب، وسواد المنايا، فالأولى استعارة، لنقاء الأحساب من الدنس، والثانية كناية عن القتل في الحرب.

كما تحدث القزويني عن طباق السلب، وعرفه بقوله "وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي، أو أمر ونهي"[١٤].

ومثل عليه بقوله تعالى: "ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا"[١٥].

فقد جاء الطباق بين يعلمون بالإثبات، ولا يعلمون بالنفي، واستشهد أيضاً بقول البحتري[١٦]:

يقيض لي من حيث لا أعلم النوى * ويسري إلى الشوق من حيث أعلم

فقد جاء الطباق بين لا أعلم وأعلم.

كما تحدث عن الطباق المرشح[١٧]، وهو الذي يأتي مرشحاً بنوعٍ من البديع، ومثل على ذلك بقول الفرزدق[١٨]:

لَعَنَ الإلهُ بَني كُلَيْبٍ إنهم * لا يَغْدِرُون وَلَا يَفُوْنَ لِجَارِ

فقال الخطيب: "وحصل في البيت مع الطباق والتكميل الدالين على غاية الهجاء إيغالٌ حسنٌ، لأنه لو اقتصر على قوله "لا يغدرون" لاحتمل الكلام ضرباً من المدح، إذ تجنب الغدر قد يكون من عفة، فقال: "ولا يفون" ليفيد أنه للعجز، كما أن ترك الوفاء للؤم، وحصل مع ذلك إيغالٌ حسن"[١٩].

كما يكتسب الطباق جمالاً وبهاءً من التضاد نفسه وإن لم يكن هناك بديعاً وليس معني ذلك أن التضاد أو المطايفة حينما تأتي من غير ترشيح تفقد قيمتها، بل إن التضاد هو الذي يكسبها قيمة، لأنه يؤدي إلى إيضاح المعنى وتقريب الصورة، وهي كما قال الشاعر:

---

(١٣) البيت في المثل السائر، لابن الاثير، ص ٢٧٧.

(١٤) الإيضاح، ص ٢٥٧.

(١٥) الروم، ٦-٧.

(١٦) الإيضاح، ص ٢٥٦.

(١٧) ديوان البحتري، ١/١١١.

(١٨) ديوان الفرزدق، ١/٣٦٠.

(١٩) الإيضاح، ص ٢٥٦.

ضِدَّانِ لَمَّا اسْتُجْمِعَا حَسُنَا * والضِدُّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضِدُّ"[٢٠]

كما ذكر القزويني الطباق الخفي، عندما يكون دقيقاً، وخافياً لا يدرك بسهولة، إلا بعد تأمل وإعمال فكر، ومثل القزويني عليه بقول تعالى:

"مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً"[٢١]، فقد طابق بين "أغرقوا" و"أدخلوا ناراً" لأن إدخال النار يستلزم الإحراق الذي هو مضاد للإغراق.

كما استشهد الخطيب القزويني على الطباق الخفي أيضاً بقول أبي تمام:

مَهَا الوَحْشِ إلّا أَنَّ هَاتَا أُوَانِسُ * قَنَا الخَطِّ إلَّا أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

يقول: "طابق بين "هاتا" و"تلك"[٢٢] لأن "هاتا" اسم إشارة للقريب، و"تلك" اسم إشارة للبعيد.

كما تحدث الخطيب القزويني عن الملحق بالطباق، ومثل عليه بقوله تعالى: "أشداء على الكفار رحماءُ بينهم"[٢٣] وقال: "فإن الرحمة مسببة عن اللين الذي هو ضد الشدة"[٢٤].

ومثل على هذا النوع أيضاً بقوله تعالى: "ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله"[٢٥].

حيث قال: "فإن ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادة للسكون، والعدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل، لأن الحركة ضربان: حركة لمصلحة، وحركة لمفسدة، والمراد الأولى لا الثانية"[٢٦].

كما تحدث الخطيب القزويني عن الطباق المسمى تدبيجاً، فقال:

"ومن الناس من سمى. نحو ما ذكرناه تدبيجاً، وفسره بأن يذكر في معنى من المديح أو غيره ألوان بقصد الكناية أو التورية"[٢٧].

---

(٢٠) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م، ص ٣٣.

(٢١) نوح، ٢٥.

(٢٢) الإيضاح، ص ٢٥٧.

(٢٣) الفتح، ٢٤.

(٢٤) الإيضاح، ص ٢٥٨.

(٢٥) القصص: ٧٣.

(٢٦) الإيضاح، ص ٢٥٨.

(٢٧) الإيضاح، ٢٥٨.

والتدبيج في اللغة معناه مأخوذ من "الدبج، النقش، والديباج معرب، والمدبج: المزين به"[٢٨].

واستشهد الخطيب القزويني على هذا النوع بمثالين أحدهما قول أبي تمام:

تَرَدَّى ثِيَابَ المَوْتِ حُمْراً فَمَا أَتى * لَهَا اللَّيْلُ إِلّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْر

فالتدبيج جاء على وجه المدح هنا، وهو كناية عن حال القتال بالثياب الحمر من الدماء، وكناية عن دخول الجنة بالثياب الأخضر، فقابل بين اللونين الأحمر والأخضر.

ويظهر من كلام القزويني "ومن الناس مَنْ سمى نحو ما ذكرناه تدبيجاً" ومن خلال مروره السريع على أمثلة هذا اللون أنه يتحفظ على هذه التسمية ربما لأنه يدرك أن هذا داخل في تفسير الطباق لما بين الألوان من تقابل، فصرح بأنه من أقسام الطباق"[٢٩].

(٢٨) القاموس المحيط، ص ٢٣٩، مادة: دبج.

(٢٩) المطول، ص ٦٤٢.

المصادر والمراجع :

الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني، البيان، البديع، للخطيب القزويني، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م، ١٤٢٤هـ.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت.

البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد شاكر، مطبعة دار المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

القاموس المحيط للفيروزبادي، تحقيق، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

كشف الظنون، حاجي خليفة.

المختصر في تاريخ البلاغة، د. عبد القادر حسين، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، للعلامة، سعد الدين سعود التفتازاني، تحقيق، د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.

مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، د. حامد الربيعي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.